الأبعاد السوسيو- ثقافية للزوايا الجزائرية

أ. جمال حواوسة
جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية – قسنطينة–

مقدمة:

يعتبر موضوع زوايا التعليم القرآني ودورها في التربية و التعليم، والمحافظة على الشخصية الجزائرية، من المواضيع الهامة والبارزة في الفكر الديني ولا سيما الإسلامي منه، فهي منذ نشأتها وإلى اليوم لعبت دوراً فعالاً على الساحة الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمع الجزائري، فقد كان أول دور لها بعد تعليم القرآن، محاربة الاستعمار الفرنسي وأساليبه الاستدمارية، حيث ساندت الثورة الجزائرية مساندة روحية عن طريق نشر الوعي الديني والثقافي في الوسط الجزائري، وبعد الاستقلال وفي ظل التغيرات الاجتماعية والثقافية التي مر بها مجتمعنا، توجه دور الزوايا إلى معالجة مظاهر الانحراف الخلقي والسلوكي على صعيد الأسرة والمجتمع، ولاسيما تحت وطأة الثقافة الإعلامية المشحونة بالقيم والاتجاهات ذات الطابع السلبي.

وتكمن أيضا أهمية ودور الزوايا الجزائرية بعد تعليم القرآن، المحافظة على الهوية الثقافية والقيم العربية الإسلامية الأصيلة، فهي تنمي في أفراد

من المحبين والزوار، وإعالة وإطعام المسافرين وأبناء السبيل"[1]، كما كانت ملاجئ للمجاهدين والفدائيين أيام الثورة التحريرية.

2- نشأتها وتطورها:

ترجع نشأة الزوايا في الجزائر إلى ما يسمى بـ: **الرباط**(*) الذي أطلق على بعض الثكنات العسكرية التي تقام في الثغور يحرس المجاهدون فيها الحدود الإسلامية، والإقامة في هذه الرباطات للدفاع عن الإسلام والمسلمين ضرب من العبادة العالية ونوع من الجهاد، وأجل هذه الرباطات هي التي كانت بالشام وبشمال إفريقيا"[2].

وبعد ذلك وبمرور الزمن أصبحت هذه الرباطات أماكن لإيواء الزهاد والصوفية الذين يعتكفون على العبادة ودراسة القرآن والحديث وخاصة في شهر رمضان، وصارت هذه الرباطات تقوم مقام الزوايا من ذكر وتعليم وبعدت عن أصلها الذي هو حراسة الثغور ولاسيما أيام السلم والهدنة، ويعد كتاب «**عنوان الدراية**» للغبريني أول كتاب في المغرب الأوسط يتحدث عن ظهور الزاوية في آخر القرن 6 هـ، والمتمثلة في زاوية **أبي زكريا الزواوي** (611هـ)، التي كانت "عبارة عن بناء صغير ملحق بمسجد يقوم فيها صاحبها بالتعبد والخلوة بمفرده،

1- ابن مرزوق الخطيب، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولاي أبي الحسن**، تحقيق مريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 413.

2- عبد الرحمان بن احمد التيجاني، مرجع سابق، ص ص 15 – 16.

(*) **الرباط**: مصدر(ربط)، وجاء في المصباح المنير: الرباط اسم من رابط مرابطة إذا لازم ثغر العدو (أحمد بن محمد الفيومي، **المصباح المنير**، المطبعة الخيرية، ج.1، ص 109.

ويشرف على خدمته بعض من أهله المقربين، بينما كان يؤدي الصلوات الخمس، ويعقد حلقات الدروس في المسجد"[1].

وقد بنيت في الجزائر عدة زوايا على شكل مساجد يؤمها رجال الصوفية، ويدير أمرها مشايخ الطرق التي تنتهجها الزوايا والتي تعتبر "من الأعمال الكبرى في تاريخ المغرب العربي، حيث أنها حافظت على القرآن والإسلام طيلة القرون السابقة"[2]، ومن هذه الزوايا "زاوية أبي حجلة عبد الواحد في تلمسان"[3] وغيرها من الزوايا التي كانت أقرب للرباطات منها إلى الزاوية.

فالرابطة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن 5هـ، واستمرت في نشاطها إلى غاية النصف الأول من القرن 7هـ، تركت وظائفها ونشاطها للزاوية التي أضافت خلال النصف الثاني من القرن 7هـ إلى رصيدها جملة من الوظائف والنشاطات "وبالتالي فان الزاوية في المغرب الأوسط هي الرابطة في بداية نشأتها وتطورها"[4].

ومن ابرز الرابطات التي كانت تؤدي نفس وظيفة الزاوية:

"رابطة عبد السلام التونسي في تلمسان، والتي أسسها صاحبها أواخر القرن الخامس الهجري، كانت تقوم بوظيفتين أساسيتين هما الانقطاع فيها

1- أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص ص 137 – 138.

2- عبد الرحمان بن احمد التيجاني، مرجع سابق، ص 16.

3- أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج6، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دون سنة، ص 240.

4- العيد مسعود، **المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني**، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، العدد 10، جامعة قسنطينة، أفريل 1988، ص 5.

للتعبد، والاجتماع فيها بالطلبة، يلقنهم التصوف وعلوم أخرى"[1]، وكذالك "رابطة ابن الزيات التي كان طلبة ابن مدين شعيب يؤدون فيها أورادهم"[2].

وبعد ذلك تطورت الرابطة في النصف الثاني من القرن 6هـ، وفي غضون النصف الأول من القرن 6هـ وأصبحت إلى جانب وظائفها السابقة تقوم بإعالة الطلبة المقيمين فيها، ومثال على ذلك "رابطة أبي محمد عبد الكريم بن عبد الملك المعروف بابن يبكي التي كانت لها أوقاف ينفق منها على الطلبة والمريدين"[3]، وكذلك بالنسبة "لرابطة علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجائي (652هـ/254 م)"[4]، ورابطة المتمني"[5].

وكانت هذه الرابطات متوارثة أبا عن جد، وبدأت تندثر لمجرد موت مؤسسها، ورغم ذلك فقد أفلحت بحجمها الصغير المتواضع في نشر التصوف وسائر العلوم النقلية والعقلية، ورغم أنها لم تكن مؤيدة سياسيا ومدعمة ماديا من طرف الدولة، وبهذا بدأ مصطلح الرابطة يختفي شيئا فشيئا من ثنايا كتب التراجم والسير، وحل محله مصطلح الزاوية، التي انتشرت خلال النصف الثاني من القرن 7هـ، نتيجة لانتشار الطرقية والتصوف، ولا سيما في عهد الحفصيين والزيانيين الذين أعطوا أهمية كبيرة للمؤسسات التعليمية والدينية ومنها الزوايا، "وأخذت الزاوية في شمال إفريقيا معنى يطلق على بناء ديني شبيهة بمؤسسة

1- ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أدولف فور، مطبوعات إفريقيا الشمالية، الرباط، المملكة المغربية، 1958، ص 88.

2- المرجع نفسه، ص 329.

3- أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني، مرجع سابق، ص 188.

4- المرجع نفسه، ص 176.

5- المرجع نفسه، ص 143.

تعليمية تحتوي في الغالب على قبة وغرفة للصلاة وضريح لولي صالح، وغرف لتحفيظ القرآن وللزائرين"[1]، وقد ظهرت في هذه المرحلة عدة زوايا منها:

"زاوية يعقوب بن عمران البويسفي (717هـ1317م) المسماة بالزاوية الملارية بفرجيوة والتي صارت مركز إشعاع فكري وصوفي، حتى جذبت إليها المريدين من كافة أنحاء المغرب الأوسط وإفريقيا والمغرب الأقصى"[2]، وزاوية بجاية مثل "زاوية أبي الفصل قاسم بن محمد القرطبي (662هـ1263م)، التي كانت يعتمد فيها الطلبة والمريدون على إعالة أنفسهم بأنفسهم من خلال الخروج للصيد في البحر بمعية شيخهم"[3]، أما في تلمسان فقد برزت "زاوية سيدي ابن الحسن التي شيدها السلطان أبو سعيد عثمان الزياني (681هـ-703هـ/1282م-1305م) في أواخر القرن السابع الهجري والتي من المحتمل أنه كان يمولها ويسهر على خدمة المقيمين فيها من الصوفية والمريدين"[4].

ويبدو أن وظيفة إيواء وإطعام المسافرين وأبناء السبيل، لم تظهر في الزوايا إلا خلال القرن 8هـ، حيث يقول أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الخطيب (781هـ) في حديثه عن الزاوية: "والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين، وإطعام المحتاجين من القاصدين"[5].

1-عميراوي أحميدة، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 2000، ص 24.

2- أبو العباس أحمد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، الرباط، المملكة المغربية، 1965، ص 40.

3- أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني، مرجع سابق، ص 162.

4- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، ترجمة محمد مزالي وبشير سلامة، الدار التونسية للنشر والتوزيع، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1969، ص 210.

5- ابن مرزوق الخطيب، مرجع سابق، ص 413.

وفي نهاية القرن 7هـ، أخذت الزاوية مرحلة أخرى من التطور، "حيث أصبحت مكانا يقصده الناس لزيارة الشيخ الصوفي والتبرك به، التماسا للدعاء، وفي حالة موته يدفن فيها، وتنتقل إدارة الزاوية وتعاليم المريدين إلى احد أبنائه أو أقاربه"[1].

ورغم أن هذه الزوايا كانت بدائية وفي تعليمها ووسائلها البسيطة من الألواح...، فإنها زودت أفراد المجتمع بالعلم، وأشبعتهم من الجوع الثقافي وخرجت أجيالا تخلصت من قبضة الأمية والجهل، هذا دون أن ننسى دور بعض الزوايا المتحركة(*) مثل الزاوية الطاهرية التي أسسها الشيخ الطاهر بن محمد حوالي 1837م، والتي كانت أهلها يتنقلون على الإبل بحثا عن المراعي الخصبة لمواشيهم، وهذه الزاوية لها أبنية ثابتة بدائرة مسعد ولاية الجلفة، ولا تزال تواصل رسالتها التعليمية إلى اليوم، وكذلك زاوية الشيخ بولرباح بدائرة الادريسية ولاية الجلفة، والتي تأسست سنة 1830، وهي زواية متنقلة ترحل صيفا وشتاء، فبالرغم من ظروف الترحال واصلت عطاءها العلمي ومدها الروحي، فنالت احترام الجميع، وقد تخرج منها العديد من حفظة القرآن، وهي الآن ثابتة ببلدية عين الشهداء بدائرة الادريسية.

أما في شرق البلاد، فيشهد التاريخ أن هناك زوايا كثيرة انتشرت في ولاية سوق أهراس، "من ذلك زاوية محمد الربيعي القادم من نفطة ومن تونس، وقد تخرج منها علماء أضاءوا شعلة الثقافة في الناحية، وكذلك زاوية سيدي نغموش ومؤسسها الشيخ معطا الله، وزاوية سيدي معمر ومؤسسها سيدي الشريف...وتنتمي أكثر هذه الزوايا إلى الطريقة الرحمانية والقليل منها إلى

1- ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار المغرب الإسلامي، ط3، بيروت، لبنان 1987، ص 390.

القادرية والأقل منها إلى التيجانية، ولهذه الزوايا علاقات قوية بالزوايا الداخلية والخارجية خاصة الزوايا المنتشرة في تونس"[1].

3- نظامها التعليمي والتربوي:

إن المتتبع لتاريخ التعليم في الجزائر يجده قد بدأ بالكتاتيب(*) والزوايا التي تستعمل في تدريسها الألواح البسيطة المكتوب عليها حروف الهجاء وقصار السور من القرآن الكريم، وكان التعليم بها بسيطا يتمثل في القراءة والكتابة التي يقبل عليها الناس آنذاك إقبالا شديدا، فلا تجد حيا من أحياء المدن، ولا مضرب من مضارب الخيام أو دشرة وبها زوايا وطلاب.

ويختلف نظام الزوايا في الجزائر من زاوية إلى أخرى، حسب اتجاه كل شيخ، وأسلوبه في التربية، ودرجة إلمامه بالعلوم النقلية والعقليّة، ومثال على ذالك: زاوية الشيخ أبي عبد الله في تلمسان، أحد تلامذة أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي (618)، والتي ألزم شيخها كل من يدخل زاويته أن يتقيد بأخلاق السلف الصالح، ويلتزم بالسنة النبوية في سلوكاته ومآكله وملبسه، أما "زاوية أبي الربيع بن حبوش الحسناوي، أحد تلامذة أبي محمد صالح الماجري (631هـ-1234م) فقد اعتمد شيخها نفس النظام التربوي السائد في رباط شيخه بآسفي، حيث تبتدئ الخطوة الأولى مع المريد، بحيث يقوم بتعريفه بعيوب نفسه، ثم يلزم الوحدة، ثم تنظم له بعض الأوراد يؤديها حتى يصبح من أهل المجاهدات"[2].

1- عميراوي أحميدة، مرجع سابق، ص 29.

(*) **الزوايا المتحركة**: عبارة عن خيم متنقلة ترافق القوافل السيارة والجيوش، ومهمتها تحفيظ القرآن، وتعليم الفقه وأصول الدين.

2- أبو العباس أحمد القسنطيني، مرجع سابق، ص 61.

"أما فيما يتعلق بزاوية يعقوب بن عمران البويسفي، فقد اقتبس صاحبها نظامها التربوي والتعليمي عن الطريقة المدنية، بحيث يخضع المريد إلى تربية قاسية من خلال تكليفه بجملة من الأوراد والأذكار التي يمكن أن تجعل المريد أثناء تأديتها بإخلاص يصل إلى الكشف، كم كان المريد يدرس علوم الحديث والفقه، ونظريات التصوف السني حتى لا ينحرف إلى البدع"[1]، فضلا عن تلك "الجولات السياحية- سياحية روحية- التي كان ينظمها يعقوب بن عمران البويسفي ويعتمد فيها على اصطحاب المريدين، حتى يقتدوا به فيما يتعرض إليه من مواقف"[2].

ولقد كانت بعض الزوايا تعج بالمكتبات التي تحتوي على كتب المشارقة والاندلسيين بالإضافة إلى المؤلفات المحلية التي ألفها أصحاب الزوايا ومشايخ الطرق الصوفية، ومن هنا كانت الزاوية مركز إشعاع ثقافي وعلمي، كما كان لها دور فعال في الجانب الاجتماعي والسياسي في المجتمع الجزائري، حيث "كثيراً ما كانت تستعمل بالإضافة إلى كونها مراكز لنشاط ديني مدارس، وملاجئ وبيوتا لعمل الخير"[3].

كما أدى انتشار الزوايا ولا سيما خلال القرنين 6 و7هـ إلى جملة من النتائج، فمن الناحية الثقافية انتشر التصوف، وتعددت طرق وأساليب التربية الصوفية، وأصبحت الزاوية تضاهي المسجد في بعض وظائفه الأساسية، "كما

1- المرجع نفسه، ص 18.

2- المرجع نفسه، ص 41.

(*) **الكتاتيب**: جمع مفرده كتاب، وهو موضع لتعليم الكتابة، وهو عبارة عن حجرة أو حجرتين مجاورة للمسجد، أو بعيدة عنه بنيت خصيصا لتعليم القرآن.

(**) **المريد**: يقصد بها طالب ومريد العلم والتعلم.

3- روم لاندو، **تاريخ المغرب في القرن العشرين**، ترجمة نيكولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1963، ص 137.

كان لها دور في التواصل الثقافي مع زوايا المغرب الإسلامي، وصوفيتها، وابرز نموذج في هذا المضمار، تلك العلاقات التي جمعت الزاوية الحسناوية في بجاية برباط أبي محمد الصالح في آسفي"[1].

أما من الناحية الاجتماعية والسياسية، فقد تزايدت أهميتها لدى أفراد المجتمع، فأصبحت قبلة للناس لطرح قضاياهم، وأدركت السلطة قدسيتها عند العامة، فبادرت لتأسيس زوايا، وعملت على إنجاح دورها الديني والتعليمي، التماسا لرضى الرعية من الناحية السياسية، وتنشيطا للحياة الثقافية من ناحية أخرى.

ولقد تطورت وظائف ونظم التعليم في الزوايا الجزائرية عبر مراحل من الرباط إلى الرابطة، ثم إلى الزاوية التي كان مشايخها الصوفيون يلزمون الطلبة بحفظ النظريات الصوفية عن ظهر قلب، ويتقيدون بالعلوم الشرعية ويبتعدون عن الخرافات والشعوذة والبدع، وهذا ما ذكر، الغبريني في: عنوان الدراية.

لكن وفي القرن 8هـ، وبعد أن أصبحت زعامة الزوايا تنتقل بطريقة وراثية، فقد قلد هؤلاء تعاليم وطرق الصوفية التي وضعها الأوائل، وبالتالي توقف الاجتهاد والبحث، وانحط مستوى التعليم والتربية الصوفية، وبالرغم من ذلك فإن رجال الطرق الصوفية الذين كانوا يشرفون على الزوايا حرسوا على استمرارية الوظائف الدينية والاجتماعية فيها.

4- الأدوار والجهود السوسيو- ثقافية للزوايا الجزائرية:

قبل حديثنا عن الأدوار والجهود الاجتماعية والثقافية التي قدمتها الزوايا للمجتمع الجزائري بصفة عامة وبإفراده بصفة خاصة، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن الطرقية والتصوف الذي وحد المجتمع روحيا، وهو ما عجز عنه الوجود

1- ابن الزيات التادلي، مرجع سابق، ص 13.

العثماني في الجزائر، حيث "اعتمد العثمانيون على المرابطين الذين يدعون الشرف أساسا في قمعهم للطرق الصوفية الثائرة الدرقاوية مثلا، إذ كثيرا ما استمال العثمانيون الشيوخ المرابطين إلى صفهم بمنحهم امتيازات، إلا أن الطرقية تمكنت من الانتشار، لدرجة انه في عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر صار معظم المرابطين ينتمون إلى الطرق الصوفية التي لها نظام إداري يشبه النظم الإدارية للحكومات لذلك العهد، ولا سيما فيما يتصل بالمناصب وجباية المال، وتسخير الأتباع في استثمار الأراضي والعقارات المحبوسة وعلى زوايا الطريقة.

ومن هنا ونظرا للمكانة التي كان الطرقيون المرابطون يحظون بها كانت معظم القبائل تتسابق إلى أن يكون لها مرابط لتدعم شوكتها، كما أن جل الانتفاضات ضد الاحتلال الفرنسي كانت من طرف الطرقيين المرابطين وبتحريض منهم وتحت قيادتهم، لأن الزوايا حلت محل الهياكل الإدارية التي سقطت سواء المتمثلة في النظام العثماني أم التي كانت بزعامة الأمير عبد القادر أو المقراني... وغيرهما من الشيوخ ولقد ضل الناس بعد وفاة صالح باي ومحمد الكبير في أواخر القرن 18م يلتفون بالمرابطين أكثر من التفافهم بالعلماء، خاصة بعدما ضعف التعليم بمدينتي قسنطينة ووهران وانحصر في الزاوية التي لعبت عدة ادوار، وقامت بعدة جهود منذ نشأتها والى اليوم، وهذا ما سنوضحه فيما يلي:

أ- **الجهود التعليمية والدينية:**

لقد كانت الزوايا مراكز لمشايخ الطرق الصوفية في الجزائر، ومراكز أيضاً للعلم والثقافة العربية الإسلامية، حيث ركزت نشاطها منذ نشأتها على الاعتناء بتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم اللغوية والشرعية، والتاريخية والفلسفية، ومن هذه الناحية أصبحت تؤدي وظيفة المدرسة الابتدائية، والثانوية والمعاهد العلمية العالية، وساهمت في إعلاء شأن الإسلام وحفظه، وتذكر المصادر

التاريخية أنه كانت في بلاد الزواوة في جبال جرجرة أكثر من 40 زاوية يؤمها كثير من طلبة العلم والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية التي "استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، وعمل رجالها الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا(الرباطات)، يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل، ويقومون بتعليم الناشئين، وبث العلم في صدور الرجال، ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها والتي نقف أمامها موقف المعترف المعجب لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين"[1].

وكان اهتمام الجزائريين بالزوايا اهتماماً كبيراً كونها ذات سلطة روحية ودينية ومدنية وقضائية بالرغم من تنوعها واختلاف أدوارها، "وهي في الأساس ذات خطاب تراثي أكثر مما هو نهضوي لأنها تمكنت من أن تحافظ على قيم المجتمع العربي الإسلامي من دون أن تعمل على تطويره، فهي كانت حصنا منيعا ضد الشوائب الداخلية على عادات وتقاليد الشعب الجزائري، فالزاوية أنشئت لتحافظ على الطريق السوي وتوحيد الأمة بمعرفة الله عز وجل"[2].

ومن أشهر الزوايا التي ساهمت في نشر العلم والثقافة الإسلامية، ولاسيما التعليم العربي الحر، نذكر على سبيل المثال لا الحصر تلك الزوايا التي انتشرت في بلاد الزواوة بجبال جرجرة:

***زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي**[3]: وهي التي يخرج منها أغلب علماء هذه المنطقة المنتشرون في غيرها من الزوايا الأخرى يعلمون القرآن واللغة

1- كتاب الجزائر، **الطرقية و الزوايا**، دار الكتاب الجزائري، دار المعارف، ط2، الجزائر 1963، ص ص 350-351.

2- عميراوي أحميدة، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، مرجع سابق، ص 36.

3- تركي رابح، **التعليم القومي والشخصية الجزائرية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر 1981 ص 240.

العربية، وعلوم الشريعة الإسلامية، للتلاميذ الوافدين عليها من جهات القطر الأخرى.

***زاوية شلاطة**[1]:بالقرب من مدينة آقبو، وقد كانت خلال القرن الثالث عشر وحتى أوائل القرن الرابع عشر الهجريين ذات شهرة عظيمة في بلاد الزواوة، ويضرب المثل بالمتخرجين منها في تحصيل العلم، وسعة الإطلاع، وغزارة المعلومات، وإجادة الفهم والاستنتاج.

***- زاوية ابن أبي داود في بلاد الزواوة**[2]: وكانت هي الأخرى ذات شهرة علمية في الأوساط الجزائرية، وتخرج منها عدد كبير من المتعلمين.

***- زاوية سيدي منصور في بني خيار**[3]: وكانت مقصداً لطلب العلم والأدب، وعلوم الشرع الإسلامي من مختلف جهات القطر.

إلا انه وبالرغم من هذه المجهودات التي قدمتها الزوايا الجزائرية في مجال التعليم والدين، فإنها لم تخلو أيضا من السلبيات التي اتصفت بها كالشعوذة والدروشة، والتعاون مع الاستعمار... الخ، والبدع التي أحدثتها في الدين، والخرافات التي روجتها بين العامة، مما أدى بمدرسة التجديد الإسلامي في الجزائر بقياد جمعية العلماء المسلمين إلى محاربة مثل هذه الزوايا، عن طريق الكتابات في الصحف والجرائد كالشهاب(*) وغيرها، وهذا ما عبر عنه احمد حماني في كتابه: صراع بين السنة والبدعة حيث يقول:"سبق أن أبنت- في بعض كتاباتي- انه طاف بالمسلمين- وهم نائمون تحت مفعول المخدرات التي خدر بها أرباب الطرق والزوايا بها أعصابهم- طائف شعور فتنبه بعض أفرادهم للخطر المحدق بالجماعة الإسلامية، وقام يعمل لصالح دينه بكل قوة وأعظم

1- المرجع نفسه، ص 240.

2- المرجع نفسه، ص 241.

3- المرجع نفسه، ص 241.

ثبات"[1]، ويضيف أيضا "كان يكاتب الشهاب من فاس عدة كتاب كبار وعلماء أحرار، منهم الشيخ محمد علال الفاسي زعيم الشبيبة حينئذ، ومنهم الشيخ محمد غازي... وكل واحد من هؤلاء مطلع على خبايا الزوايا متشبك معها في معركة"[2]، وبالرغم من السلبيات الكثيرة التي التصقت ببعض الزوايا، إلا انه هناك منها ما قدم خيرا في مجال العلم والدين قبل انحرافه عن جادة الصواب.

أما عن زوايا الجنوب الجزائري فهي الأخرى لعبت دورا بالغ الأهمية قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر وأثناءه في نشر تعاليم الدين الإسلامي، واللغة العربية في أرجاء الوطن، ولاسيما جنوب الصحراء، حيث تخرج منها الكثير من العلماء والفقهاء، وحفظة القرآن الكريم، ونذكر منها أيضا على سبيل المثال:

***- زاوية الهامل**[3]: بالقرب من مدينة بوسعادة، وهي من أهم زوايا هذه المنطقة، وتتمتع بسمعة علمية كبيرة في الجزائر والأقطار المجاورة لها، وقد أنشئت في عام 1863، بعد الاحتلال بثلاث وثلاثين عاما، ومازالت هذه الزاوية التي تحولت في عهد الاستقلال إلى معهد علمي كبير تؤدي رسالتها في نشر اللغة العربية، والثقافة الإسلامية حتى اليوم.

1-أحمد حماني، **صراع بين السنة والبدعة**، ج2، دار البعث للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر 1984 ص96.

2- المرجع نفسه، ص 97.

(*) **جريدة الشهاب**: أصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1925 بعدما صودرت جريدة المنتقد، وكانت عقائدية وإصلاحية وسياسية.

3- تركي رابح، مرجع سابق، ص 241، وهذه الزاوية كان لها مقررات وكتب مدرسية.

*- **زاوية سيدي علي بن عمر**[1]: بالقرب من مدينة طولقة، التي توجد بها مكتبة كبرى من المخطوطات النفيسة تدل على ماضيها العريق في خدمة العلم والثقافة العربية الإسلامية.

وهناك زوايا أخرى كزاوية سيدي خالد، وزاوية أولاد جلال، وكلها حملت شعار العلم والثقافة العربية الإسلامية في زمن الاحتلال الفرنسي للجزائر، وخرجت العديد من العلماء الصالحين الذين ساهموا بدورهم في نشر العلم والمعرفة، وخاصة القرآن الكريم وعلوم الدين.

أما عن زوايا شمال البلاد (غير زوايا زواوة) نذكر زاوية سيدي عبد الرحمن بن الحملاوي بالتلاغمة قرب قسنطينة، والتي يقصدها الكثير من طلبة العلم، حيث أن "الدراسة بها منظمة تنظيما جيدا، وتعمل على جلب الأساتذة للتدريس بها من جامع الزيتونة في تونس، ولها فرع في مدينة قسنطينة تكون سنة 1947 هو مدرسة الكتابية، ثم زاوية ابن الشرقي، وزاوية السيد الميسوم، وزاوية مازونة، وزاوية معسكر وغيرها"[2]، وقدرت مجلة «كوفيليان» الفرنسية "عدد الزوايا في الجزائر كلها حتى عام 1871 بألفي زاوية (2000) منتشرة في مختلف مناطق البلاد"[3]، إلا أن دورها بصفة عامة بدأ يتناقص شيئاً فشيئاً منذ نهاية القرن 19م، لأن الاحتلال الفرنسي استولى على الأوقاف الإسلامية التي كانت تعتمد عليها الزوايا في أداء رسالتها التربوية والتعليمية والاجتماعية، وبالتالي ضعفت التربية والتعليم في الجزائر واختفت خصوصا في المدن الكبرى، وأصبح التعليم محصوراً في بعض المساجد والكتاتيب.

1- المرجع نفسه، ص 241.

2- المرجع نفسه، ص 242.

3- المرجع نفسه، ص 241.

"ومهما يكن من أمر فقد ظلت الزوايا إلى عام 1891 هي المراكز التي يمكن للأطفال الجزائريين أن يتلقوا فيها التعليم العربي الديني"[1].

ولقد أشار تقرير لجنة مجلس الشيوخ الفرنسي الذي زار الجزائر سنة 1891 للإطلاع على أحوال الجزائريين على لسان أحد أعضائها- مستشار الدولة الفرنسي Léon Beki– قائلا: "إن التعليم في الجزائر الآن (1891) قائم تحت إشراف الأهالي أنفسهم والزاوية حيث يتعلم فيها التلاميذ القرآن وتفسيره، هي المؤسسة التعليمية الوحيدة في المستعمرة"[2].

ولقد ظلت الزوايا تعمل منفردة عن المساجد من الناحية التعليمية والأساتذة، وكل واحدة مستقلة من الناحية التربوية، ولم يكن بينهما أي تنسيق طوال المرحلة الدراسية إلا في الهدف العام، وهو المحافظة على القرآن الكريم، والعلوم الدينية واللغوية.

ب- الجهود السياسية الوطنية:

تشهد الكتابات التاريخية والمؤرخين، أن شيوخ الزوايا، وأبناءهم من تلاميذ ومريدين، كانوا أسرع من غيرهم مبادرة لجهاد العدو الفرنسي، وقيادة الثورات الشعبية، نذكر على سبيل المثال: بوبغلة، بومعزة، المقراني، وبوعمامة، وكل هذه الثورات كان منطلقها الزاوية، حيث "ثارت منطقة وهران ضد الاستعمار من الزوايا تحت الطريقة الدرقاوية، كما ثارت منطقة القبائل بزعامة بوبغلة، وجهة الظهرة بقيادة بومعزة، وكل هذه الثورات بدأت شرارتها الأولى

1- تركي رابح، الشيخ، عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط4، الجزائر 1984، ص 132.

2- المرجع نفسه، ص 132.

سنة 1843، كما تذكر المصادر التاريخية"[1] وقد هدد الشريف بوبغلة الوجود الفرنسي في بلاد الزواوة في أواخر 1849 وأوائل 1850، و"انضم إليه أهل زواوة جماعات حتى كثر جيشه على داعي الجهاد، كما انضم إليه طلبة الزوايا وقاموا بالدعاية له وسط الجماهير باسم الدين والوطنية والاستقلال"[2].

وعندما عقد الشيخ بوبغلة اجتماعا كبيرا في منطقة القبائل في سوق الثلاثاء ببني إيجار للمبايعة وإعلان الجهاد جماعيا، ساندہ شيوخ المنطقة ومرابطيها، "ومن الذين فعلوا ذلك عندئذ لالا فاطمة نسومر مقدمة (زعيمة) زاوية ورجة"[3] وبقيت مقاومة شيوخ الزوايا بين المد والجزر إلى غاية مرور حوالي 10 سنوات أي سنة 1854، "ولم تحل سنة 1857 حتى كانت منطقة القبائل كلها في حالة ثورة بفضل الجهود الدينية والسياسية التي بذلتها الطريقة الرحمانية"[4] بزواياها.

وعندما صار الشيخ الحداد زعيم للطريقة الرحمانية أعلن من زاويته(*) الجهاد الإسلامي ضد فرنسا في ثورة المقراني 1871، "وقد كان يتجول في الأسواق مرفوعا على الأكتاف ليحمس الناس للثورة ولجمع القوات اللازمة لذلك"[5]، وكان للشيخ الحداد وزاويته الرحمانية بصدوق، صلات وعلاقات دينية بزوايا رحمانية أخرى مثل زاوية الهامل وطولقة بالجزائر، وزاوية نفطة بتونس،

1- أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر 1983، ص 45.

2- أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1900**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1992، ص 345.

3- المرجع نفسه، ص 346.

4- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 52.

5- يسلي مقران، **الحركة الدينية والاصلاحية في منطقة القبائل (1920- 1954)**، رسالة ماجستير، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر 1991 ص 145.

وتذكر المصادر التاريخية أن هذه الزوايا الرحمانية كانت متصارعة فيما بينها، "إلا أنها متفقة في خصوماتها وعدائها للتجانيين في قمار وتماسين"[1].

"أما زاوية صدوق فكان لها اتجاه مستقل ويمثل رئيسها الشيخ الحداد الجانب الشعبي، لكونه لم ينحدر من عائلة أروستقراطية ثرية، ولم يسبق لأسرته أن تمتعت بمكانة أو مركز سياسي موروث حتى تتصف ببعض صفات وخصائص العائلات الاوروستقراطية"[2].

ولقد كانت الزوايا منتشرة ولها نفوذ واسع ولا سيما زوايا الطريقة الرحمانية في منطقة القبائل، حيث حاربت الاستعمار الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر، "وقد أرجع بعض الكتاب الفرنسيين فشل سياسة الفرنسة والتنصير إلى الزوايا التي بقيت منتشرة في البلاد رغم قضاء الاستعمار على العديد منها"[3]، وشدد الرقابة على زيارتها.

أما سنة 1856، فقد كانت مليئة بالأحداث، حيث انتشر جيش العدو في جبال جرجرة قصد إخضاع أصحاب الزوايا والمشايخ الصوفية، إلا أن الزاوية الرحمانية الأم دخلت الميدان بقيادة شيخها الحاج عمر(**) الذي كان له دور كبير في الثورة آنذاك، " كما لعبت زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمان في ذراع الميزان هي الأخرى دورا هاما في مقاومة الاستعمار، إذ تزعم (سي الحاج عمر) سنة1851 حركة ثورية ضد القوات الفرنسية"[4]، وتذكر المصادر التاريخية أنه"بعد

1- يحي بوعزيز، **ثورة 1871** (دور عائلتي المقراني والحداد)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون سنة، ص 79.

2- المرجع نفسه، ص 79.

3- يسلي مقران، مرجع سابق ص 144.

4- المرجع نفسه، ص 148.

(*) زاوية الشيخ الحداد الرحمانية كانت بصدوق ببجاية، وعدد طلابها أكثر من 200 طالب.

(**) الشيخ الحاج عمر (1259-1844): مقدم وزعيم الزاوية الرحمانية الأم.

أن ظل الحاج عمر شيخ الزاوية الأم يديرها ويجمع أموالها ويستقبل زوارها وينشر فيها التعليم، حدثت ثورة جرجرة أثرت على مسيرة الزاوية، إذ شارك الحاج عمر في الثورة وبالطبع اشترك معه فيها (طلبة) الزاوية"[1].

أما عن زاوية تيميرماسين بالأوراس، فقد كان زعيمها الصادق بلحاج مقدم الطريقة الرحمانية في هذه الزاوية التي ثارت ضد الاحتلال هي الأخرى بحلول شهر نوفمبر 1858، ونتج عن هذه الثورة "تخريب زاوية الشيخ المحمودي الرحمانية (زاوية الشيخ الصادق) التي أمر الجنرال ديفو بهدمها تماما سنة 1859 بدعوى أنها كانت منطلقا للثورة وناديا(للتعصب) ضد الفرنسيين"[2]، ولكن سرعان ما قام مقدمي هذه الزاوية وعلى رأسها الشيخ الطاهر ابن الصادق بلحاج بإعادة بنائها، وأصبح لها أتباع جدد، وبقيت محافظة على تقاليدها.

ومن الرحمانيين الذين كان لهم دور سياسي في ثورة 1871، سي محمد علي السحنوني أحد المقدمين في ناحية الأربعاء نايت ايراتن، "وقد قام هذا الأخير بتنظيم الهجوم على المدينة المحصنة التي حاصرها بجيشه أكثر من شهرين"[3].

ومن هنا يبدو واضحا أن معظم الثورات والمقاومات في الجزائر وخاصة في منطقة القبائل، كانت تحت قيادة الزاوية الرحمانية، التي حركت الهمم، وأيقظت الشعور الوطني ضد الاحتلال الفرنسي، ويذكر احد المؤرخين الفرنسيين، ألا وهو بول غافاريل: "أن فرنسا تحارب في الجزائر أمة مدفوعة

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1900، مرجع سابق، ص 387.

2- المرجع نفسه، ص 366.

3- يسلي مقران، مرجع سابق ص 148.

بعصبية ثنائية الوطنية والدين"[1]، ويبدو أن هذا التحليل صحيح إلى حد ما لأن العديد من الثورات التي قامت ضد الفرنسيين كان يتزعمها مشايخ الزوايا حتى أوائل القرن 19م وبداية القرن 20م.

وعندما اندلعت ثورة التحرير سنة 1954 تحولت زوايا كثيرة إلى مراكز للثورة تحت غلاف التعليم أو التعبد أو زيارات التبرك، تعقد فيها الاجتماعات للتنظيم والإعلام، والتجنيد والتمويل، وجمع السلاح والدواء... إلى غير ذلك مما تتطلبه الثورة، كما ظهرت في بعض الزوايا محاكم شرعية للفصل في قضايا المواطنين بشريعة الله.

ونتيجة لذلك سجن الاستعمار الفرنسي الكثير من شيوخ الزوايا ومريديها وعذبوا ونفوا واستشهدوا، ودمرت زوايا عديدة كما سبق الإشارة إلى ذلك، ولم تثبت المصادر التاريخية أن أحدا من شيوخ الزوايا تخلف عن المشاركة في ثورة التحرير ومساندتها، بل إن أغلب المسؤوليات والقيادات المحلية ولا سيما الروحية كانت تسند إليهم.

خاتمة:

بناء على ما سبق فإنه يتضح لنا أن الزاوية الجزائرية كمؤسسة تعليمية وثقافية ودينية، ومنذ نشأتها وإلى اليوم لعبت أدوارا كبيرة في شتى المجالات، والتاريخ يشهد على ذلك، فبالرغم من التناحر والاختلاف الموجود بين بعض الطرق والزوايا، فإنه لا يمكننا إنكار ما قدمته هذه الزوايا للشعب الجزائري، ولا نعتقد أننا على خطأ إن قلنا: أن الزاوية الجزائرية بمختلف طرقها كان لها الدور الفعال في معظم الأحداث الاجتماعية والثقافية والسياسية، مما أدى بالاستعمار الفرنسي بعد ما تفطن إلى أهميتها إلى كسب الكثير من صفوفها، وعندما أدرك عجزه، اضطر إلى تدميرها وتحويل البعض منها إلى كنائس وثكنات...الخ.

1- المرجع نفسه، ص.147.

وفي الأخير أدعو كافة الباحثين والمهتمين بموضوع الزوايا إجراء دراسات علمية وتاريخية واجتماعية، حول مختلف الزوايا الجزائرية، وتسليط الضوء على ذلك الماضي الأصيل من تاريخ الجزائر الثقافي، والذي لعبت فيه الزوايا والكتاتيب القرآنية والرباطات دوراً فعالاً في المحافظة على الشخصية والهوية الوطنية، والثقافية العربية الإسلامية.